٥٧ اللجوء إلى الله

اللَّهُمَّ أجِرْنِي مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال :

« إِذَا كَانَ يَوْمٌ حَارٌّ فَقَالَ الرَّجُلُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ .. مَا أَشَدَّ حَرَّ هَذَا اليَوْمِ ! اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي اسْتَجَارَ بِي مِنْ حَرِّكِ ، وَ إِنِّي أُشْهِدُكِ أَنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ .

وَإِنْ كَانَ يَوْماً شَدِيدَ البَرْدِ ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ .. مَا أَشَدَّ بَرْدَ هَذَا اليَوْمِ ! اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِجَهَنَّمَ : إِنَّ عَبْدَاً مِنْ عِبَادِي قَدْ اسْتَجَارَ بِي مِنْ زَمْهَرِيرِكِ ، وَإِنِّي أُشْهِدُكِ أَنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ .

قَالُوا : وَمَا زَمْهَرِيرُ جَهَنَّمَ ؟ قَالَ : بَيْتٌ يُلْقَى فِيهِ الْكَافِرُ فَيَتَمَيَّزُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهَا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ » (١)

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة [٣٠٧] ، والحديث في الاتحافات السنية [٣٠٥] معزواً لابن السني وأبي نعيم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة معاً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ ﴾[الفرقان]

أولئك عباد الله المتقون الصادقون مع أنفسهم ، الذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً ، يسجدون على أنوفهم ووجوههم لله ، قائمين على أقدامهم ، يحذرون الآخرة ، ويرجون رحمة الله .إنهم يتمثلون عذاب الآخرة أمام أعينهم ويستحضرون أهواله وشدائده ، ويعرفون تمام المعرفة أن مَنْ يُزحزح عن هذا العذاب يكون قد فاز فوزاً عظيماً .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

آية جامعة تتحدث عن حقائق لا تقبل الشك ، بدأها الحق سبحانه بالأمر المشاهَد لكل إنسان وهى حقيقة الموت ، وأن كل نفس لا بُدَّ ذائقته ، وأيضاً فإن توفية الأجور وإثابة المحسن وعقاب المسيء حقيقة أيضاً ، فإنكم إذا كنتم ستموتون كقضاء قَدَّره الله على كل حَىٍّ ، فلا تخافوا ؛ لأن كل إنسان سيأخذ حقَّه ، ففى يوم القيامة لا يُظلم أحدٌ .

ويبقى الأمل الذى لا ينقطع فى أنْ يُزَحْزح عن النار ، وكأن للنار جاذبيةً تجذب الإنسانَ ناحيتها ، فالنار مُحَاطة بالشهوات ، فنحتاج إلى فضل الله وكرمه علينا ، بأنْ يبعدنا ويزحزحنا عن النار ويُدخلنا الجنة ، وليس مهماً فى أى مكان فى الجنة ، فى أعلاها ، أو فى أسفلها ، فمجرد دخولها هو فوز عظيم .

لـــذلك كان دعاء المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : أن عذابها لازم دائم لا ينتهى .

وقـــولهم : ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفـــرقان] ، كـــأنهم يتصوَّرون أن جهنم ستسعى إليهم وأن بينها وبينهم لَدَداً [1] بدليل أن جهنم تقول ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق] وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

ويقول عن أهل النار ﴿ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة]

والـــصاحب هـــو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ، ويقضى أجمل أوقاته ، فكان قوله تعالى ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ دليلاً على عِشْق النار لهم، فهـــى تفـــرح بهـــم عندما يدخلونها كما يفرح الصديق بصديقه ولا تريد أن تفارقهم أبداً.

فالـــنار تصاحبهم فى كل مكان ، وهى ليستْ مصاحبة كريهة بالنسبة للنار، ولكنها مُصَاحَبة تحبُّها النار ، فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكـــون سعيدة ؛ لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله ، وكذَّبوا بآياته فى الحياة الدنيا .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة . [لسان العرب - مادة : لدد] .

وكـــذلك الحال بالنسبة للجنة ، فإن الجنة أيضاً تحب مصاحبة كل مَنْ آمـــن بـــالله وأخلص له العبادة ، وطبَّق منهجه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ [1] إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [هود]

فكأن النارَ ستجذب أصحابها ، وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى : لا مهـــربَ ولا مفرَّ ، وكان باستطاعة الواحد منهم أنْ يفرَّ من مخلوق مثله فى دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمرُ لله وحده فلا مفرَّ .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

فحين نسمع ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ ، ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ تتزلزل النفوسُ رهـــبةً من تلك الصُّحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدلُّ على التلازم ، وتعنى الارتـــباط معاً ، وألاَّ يترك أحدُهما الآخرَ ، كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيمُ نفسها فى اشتياق لهم .

وكـــأنهم عـــشقوا النارَ فعشقتهم النارُ ، ولو كانت لديهم قدرةٌ على أنْ يفـــرُّوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها ، وهى مربوطة بهم ، وهى بئس القرار ؛ لأن أحداً لن يخرجَ منها إلا أنْ يشاء الله .

وجهنم اسم من أسماء النار التى يُعذِّب اللهُ بها مَن استحقَّ من عبيده ، سُمِّيت بـــ " جهنم " لبُعْد قَعْرها .

---

(١) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا فى الطريق المستقيم المطمئن الواسع. وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الحج] أى : الخاشعين .

والعــذاب فيها دائم ، لا يتغير ولا يفتر ، ولا يُخفَّف ، بل هو مستمر إلــى الأبد ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [آل عمران]

أى : أن العــذاب يظل دائماً أبداً . وقد يظن بعضُ الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره ، إنه يتناسى قولَ الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

مــشهد يُشخّص الهوْلَ العظيم المُفزِع للقلوب ، فتقشعرّ منه الأبدان ، وترتعد منه الفرائص ، أمّا من نهاية لهذا العذاب ، لسان حال الكافرين الذين أُلقِــى بهــم فــى هــذه النار ، وفى هذا العذاب الذي لا ينتهى بسبب كفرهم وشركهم ، فلا هُمْ يموتون من هذا العذاب ، ولا هو يتوقف ، ولا حتى تموت جلودهم ، فلا تشعر ولا تحسُّ ، بل كلما شُوِيَتْ الجلودُ بهذه النار نجد الجلودَ تتبدّل .

فلا ينتهى الإحساسُ بالعذاب ، بل هو دائم مستمر ﴿ لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

إن الله يخلــق للمعذَّب إحساساً جديداً ؛ ليظل مُستشعراً دائماً العذابَ ، قال الحق سبحانه : ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [آل عمران] أى : أن عذابهم مؤكّد ، ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر]

ويقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]

إن المجرمين يتصايحون ويصطرخون فى النار ، إنهم هذه المرة لا يطلبون النجاة ، فقد علموا وأيقنوا أنْ لا فرارَ منه ، ولكنهم هذه المرة يطلبون الهلاك السريع الذى يريحهم من هذا العذاب ، فالنفوس قد أطار صوابها العذابُ ، ولم يعودوا يحتملون هذا العذاب ، فينادون خازن النار :

﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فيردُّ عليهم مالك : ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]

فلا خلاصَ ، ولا رجاءَ ، ولا موتَ ، ولا قضاء .

بل إنهم يلجئون لخزنة جهنم ، يطلبون منهم الدعاء لهم أن يُخفّف الله عنهم هذا العذاب : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [غافر]

فهم من شدة البلاء والكَرْب والعذاب يلجئون لحُرَّاس جهنم ،

يستشفعون بهم ليُخفِّفَ اللهُ عنهم يوماً واحداً فقط ؛ ليستريحوا فيه من العذاب وليلتقطوا أنفاسهم .

ولكـــن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة ، وهذا يزيدهم عذاباً على عذابهم ، فلا أملَ فى النجاة .

لـــذلك كان عذاب جهنم يستحق من عباد الله المؤمنين الخوفَ والوَجَلَ والارتعـــاد ، فيطلـــبون من الله صَرْف هذا العذاب عنهم ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]

وصَـــرْف العذاب رحمةٌ من الله عز وجل ، يقول تعالى لنبيه ورسوله محمـــــد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنعام]

فذلك الفوز هو أرقى درجات الفوز ، أنْ يُصْرَف العذاب عن العبد ، فهـــو فـــوزٌ واضحٌ مبين ، لذلك وصف عبادُ الرحمن النارَ ، فقالوا : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان]

فـــلا يظنّ أحدٌ أن النارَ فترة وتنتهى : ثم يخرجون منها ، فهى مُستقر دائم للكافرين ، ومقام لن يفارقوه ، ولن تفارقهم .

فعـــباد الله يُوقـــنون بهذا الأمر ؛ يُوقنون بقول الله عز وجل : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

فحكمة الله اقتضتْ تأجيلَ العذاب إلى وقت يُحَدِّده الله ، وفى هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون عـلى الله ويُوغِلون فى الكفر ، ويقولون : ما الذى يمنع عنَّا العذاب ؟

إنهم يقولون ذلك استهزاءً وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آتٍ حتماً، ولا خلاصَ لهم منه ؛ لأن الله صادقٌ فى وعده ووعيده ، وسيأتيهم العذابُ ؛ لأنهم استهزأوا وسخروا ، فلا مناصَ لهم عنه ، ولا مهربَ لهم منه .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذابَ سيأتى ، ولكن العبادَ دائماً يَعجلون ، والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ، حتى تبغ الأمورُ ما أراد ، وكلُّ أمر له وقت ، وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

وقد جاء تأكيدُ وصول العذاب إليهم بأشياء ، منها " ألا " وهى أداةُ تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ وهذا خبر بأن العذاب آتٍ لا محالةَ ؛ لأن الذى يُخبر به هو الله سبحانه .

وأيضاً فهذا العذابُ ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [هود] أى : أنه عذابٌ مستمر .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

[هود] يعنى : أنه حلَّ بهم ونزل عليهم ، ووقعَ لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل ، فالأمر واقعٌ لا محالةَ ، وما دام الحقُّ سبحانه قد قال إنه أمر قد أتى ، فهو آتٍ لا محالةَ ؛ ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَحَاقَ بِهِم .. ﴿٨﴾ ﴾ [هود] فالأمر بالنسبة له سبحانه لن يحولَ بينه وبين وقوعه أىُّ عائق .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

إنهم يستغيثون فى الآخرة ويُغاثون بالفعل ، ولكن بأىِّ شىء يُغيثهم الله؟ إنه يُغيثهم بماء كالمُهْل [1] يَشْوى الوجوه ، إننا ساعة أنْ نسمع " يُغَاثوا " قد نظن أن هناك فرجاً قادماً ، ولكن الذى يأتى هو ماءٌ كالمُهْل يَشْوى الوجوه

وهذا قمة الهَول ، وذلك مثل السجين الذى يطلب كوبَ ماء ، ويستطيع السجان أنْ يقولَ له : لا ، ليس هناك ماءٌ . أما إذا أراد السجانُ تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمدُّ السجينُ يده لكوب الماء ، لكن السجانَ يسكب كوبَ الماء أرضاً.

وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ، فلا إرادةَ لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنَّة أنْ يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ؛ ولذلك يقول

(١) المُهْل : هو دردى الزيت ، وقيل : هو العكر المغلىّ . قال أبو عمرو : المهل أيضاً : القبح والصديد . [لسان العرب - مادة : مهل] .

الحق أيضاً عن هؤلاء : ﴿ فَبَشِّرْهُم .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وتثير البشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ، ولكن تكون النتيجة هى : ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران] وهكذا يريد لهم الحقُّ صدمةَ الألم المُؤنس بعد الرَّجاء المُطمع .

يقول تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة]

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب يُغاثون ، يتبادر إلى الذهن أنهم يُغاثون بشىء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحةٌ من الرحمة أو يُخفَّف من العذاب .. لا ﴿ يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يُخفّف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمُهْل هو عكارة الزيت المغلىّ الذى يُسمُّونه الدُّرْدى ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْى الماء، وهكذا يزدادون حرارة فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

ولكن الحق سبحانه يقول عن النار : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتدّ أعينُهم إلى مكان خَالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خالٍ من النار قد تُوحى إليه بالأمل فى الخروج .

فقول الحق سبحانه عن عباد الرحمن أنهم ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان] يناسب الذين يفعلون الخيرات ، طمعاً في الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون هذا .

كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهيام والعشق ، ومعناها : اللزوم، أى لازمٌ لهم لا ينفكّ عنهم فى النار أبداً ؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً .

فمعنى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهى المسألة . ومنه كلمة :الغريم وهو الذى يلازم المَدين ليأخذ منه دَيْنه .

أما عباد الله الذين ماك الخوف قلوبهم إشفاقاً من عذاب الله ، فجزاؤهم الجنة خالدين فيها أبداً ، ويخاطبهم رَبُّ العزة سبحانه ، فيقول : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزخرف]

فما دُمْتم عباداً لله فلا تخافوا من شىء ، ولا تحزنوا على شىء ؛ لأن المسلمَ فى الدنيا يقول : لا كرْبَ وأنت رَبٌّ . أى : لا كرْبَ يُخيفنا طالما أن لنا رباً ، هو الله الرحمن الرحيم ، فالمؤمنون فى الآخرة الذين هم عبادُ الله لا يخافون من شىء سيحدث لهم ، ولا يحزنون على شىء فَاتَهم فى الدنيا من نعيمها ؛ لأن ما وجدوه عند الله خيرٌ وأبقى .

ولكن ، مَنْ هم هؤلاء العباد ؟

يقـول الحـق سـبحانه بعد ذلك : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزخـرف] . إذن : هـناك فـرقٌ بين الإيمان والإسلام ، الإيمـان عملُ القلب ، والإسلام عملُ الجوارح التى تنفذ ما أمر به مَنْ آمنت به ، وهو الله .

ولـذلك كـان المـنافقون أسبقَ الناس إلى الصلاة ، لكن قلوبهم غير مؤمنة؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات]

فهُـم لم يؤمنوا ، ولكنهم يقومون بأعمال المسلمين ، ولذلك كان بعض المنافقـين يحرصـون على الصلاة فى الصف الأول لينفوا عن أنفسهم تهمةَ الـنفاق ، ومـن الظواهر العجيبةِ أن المدينة وهى منطلقُ الإسلام بالأنصار ظهر فيها النفاقُ ، بينما مكة التى كانت تحارب الإسلام والمسلمين لم يظهر فيها نفاقٌ أبداً .

فمعنـى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزخرف] أى: اقتنعتْ قلوبُهم اقتناعَ يقين . هؤلاء المؤمنون الذين هم عباد الله .

يقـول الحق سبحانه عن جزائهم فى الآخرة : ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : تُـسَرُّون . أو : يغـشاكم الحُبُور وهو لَوْن البَهاء الذى يُشِع من وجه الإنسان التقى لسروره ، مصْداقاً لقولِ الله سبحانه وتعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِى

﴿ وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين]

كأن اسمه النعيم الناضج ، ومعنى نعيم ناضج أنك حين ترى هذا الإنسان تعرف أنه مُنعَّم ومسرور وفرِح . إذن : فالوجه هو المرآة المُعبِّرة عما في النفس البشرية ، وهذا واقع ، فساعةَ ترى أيَّ واحد تستطيع أنْ تحكم عليه إنْ كان مسروراً ، أو إنْ كان حزيناً ، أو مهموماً ومشغولاً .

إذن : قول الحق سبحانه : ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين] يعني : أنه لا شيءَ يُنغِّص عليهم حياتهم السعيدة هذه ، فتنم عنه هذه الوجوه ، فساعةَ تراهم تشعر أنهم مُنعَّمون .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المطففين]

فالرحيقُ هنا مُصفَّى في ذاته من كُلِّ الشوائب ، وفوق ذلك فهو مختوم، وذلك دليلُ الصيانة المتناهية ، وختامه ليس صفيحاً أو فلّيناً ، كالذي نختم به المشروباتِ في الدنيا ، وإنما ختامه مسك .

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المطففين] أي : أن هذا هو المجال الذي يَصحّ أنْ يكون فيه السباقُ والتنافسُ عليه ، فالتنافسُ لا ينبغي أنْ يكونَ في الطفيف من الأشياء ، أو المَهين الحقير من حُطام الدنيا وعَرَضها الزائل ، بل يكون التنافس على هذا النعيم الدائم الباقي .

والمنافسة معناها المغالبة على الشيء النفيس . تقول : نافستُ فلاناً ، أي : غالبته على الشيء ، أنت تريد أنْ تأخذه ، وهو يريد أنْ يأخذه ، وكلُّ واحد منّا يجدُّ ويجتهد في أنْ يحصلَ على ذلك النفيس ، أو هو لونٌ من

مجاهـــدة النفس ، هذه المجاهدة لها غـايةٌ ، هذه الغايةُ أنْ تلحق بالأفضل فى الصفات .

إذن : المنافسة أننى أجتهد لأظفرَ بشىء ظفر به فضلاءُ بدون أنْ أُلحِق ضرراً بالآخرين ، وبذلك تختلف المنافسةُ عن الحسد ، فالذين عندهم طموحٌ للمعالـــى لا يتنافسون فيما يمكن أنْ يتركهم أو يتركوه ، لأننا قُلْنا : إن نعيمَ الدنـــيا إمـــا أنْ يتـــركه الإنسانُ بالموت ، أو يتركه النعيمُ ، بأنْ يزولَ عنه ويُسلب منه ، إنما هناك فى الآخرة نعيمٌ لا تفوته ولا يفوتك .

إذن : هذا هو التنافس الحقيقى الذى لا بُدَّ أنْ يتنافسَ فيه المتنافسون .

هذا التنافس هو نتيجة لليقين الجازم فى معنى قوله سبحانه :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

وعـــن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ((موضع ســـوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها . اقرأوا إن شئتم : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

وعـــندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناه أنه كان متوقفاً برعب وهلع ، فكـــيف يحدث ذلك عند النار ؟ فالنار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخـــذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن لنار حتى وإن وقف بينهما ، لا فى

النار ولا فى الجنة فهذا حسن ، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأُدخل الجنة ؟

فالذى يُزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمةً أخرى ، والحق سبحانه لم يقُلْ : ومَنْ أُدخل الجنة فقد فاز ، بل قال :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

لأن مجـــرد أن تُزحزح عن النار فوز عظيم ، وفى الآخرة ، وبعد الحساب يُضرب الصراط فوق جهنم ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون .

يجـــتاز المؤمـــنون الصراط المستقيم كلٌّ حسب عمله ، منهم مَنْ يمرُّ بـــسرعة البرق ، ومنهم مَن يمرُّ أكثر بُطأ وهكذا ، والكافرون يسقطون فى النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم]

فمجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرونَ العذاب الرهيب الـــذى أنجـــاهم الإيمانُ منه يحسّ كل منهم بنعمة الله عليه أنه أنجاه من هذا العـــذاب ، وأهـــل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً ، فأهل الجنة حينما يـــرون أهلَ النار يُحسون بعظيم نعمة الله عليهم إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرونَ أهل الجنة يُحسّون بعظيم غضب الله عليهم أنْ حرمهم من نعيمه ، فكأن هذه الرؤية نعيمٌ لأهل الجنة وزيادة فى العذاب لأهل النار .

فمجـــرد الزحزحة عن النار فضلٌ ونعمة ، فمراحل الفوز أنْ يُزحزحَ الإنـــسانُ أولاً عـــن النار ، ففى هذا سَلبٌ للمضرَّة وجلبٌ للمنفعة ، وإنْ ظل الإنـــسانُ فـــى موقعه ، لا هو فى الجنة ولا هو فى النار ، فهذا هَيِّن أيضاً ، وإنْ أُدخلَ الجنة فهذا هو الخير كله .

فـــرؤية المـــؤمن للـــنار قبل أن يدخل الجنة تُريه مدى نعمة الله عليه ورحمته به ، حيث نجَّاه من هذا العذاب ، ويعلم فضل الإيمان عليه ، وكيف أنه أخذ بيده حتى مرَّ من هذا المكان سالماً .

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً ، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤيةَ الحسرة والندامة والفزع ، لأنه يعلم أنه داخلها ولن يفلت منها .

لـــذلك قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [مـــريم] ومـــشهد يـــوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناسُ لربِّ العالمين ، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم ، لأنه يومٌ مشهود يشهده الجميع لأن العذاب فى الدنـــيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون للمعاصرون ، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كلُّ الخَلْق .

وربمـــا كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب ، فربما تحمَّل هو العذاب فى نفسه ، أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً ، ويـــرونه فى هذه المهانة وهذه الذلة ، وقد كان فى الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له فى هذه الحالة تكون أنكى له وأبلغ .

وإذا كـــان عباد الله يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خَلْق السماوات والأرض ، فإن هذا من يقينهم بالله عزَّ وجلَّ ، وأن وعده حقٌّ وأن النارَ حقٌّ ، وأن الجنةَ حقٌّ .

لـــذلك يقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمـــران] ، فهـــم يتضرعون إلى الله أنْ يقيهم ويُنجيهم من عـــذاب النار ، ويُتبعون دعاءهم هذا بقولهم : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [آل عمران]

وهـــذه هـــى العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب مَنْ يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمن دخل النار ، وكأن الخزىَ مرتبةٌ أشرّ من عذاب النار ، فمَـــن الذى أعطانا كلَّ هذا الفضل ، إنه سبحانه أعطانا توفيقاً لذكره وتوفيقاً لنتفكر فى خلق السماوات والأرض ، فهل يصحّ أن نقابله بكفران النعمة ؟

وما الذى يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟ إنه الخزى والعياذ بالله .

وقـــد ســـمَّى الحق سبحانه عذاب الخزى مُسميات أخرى ، فهو أيضاً عـــذاب الهُـــون ، قـــال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فعـــذاب الهُون هو العذاب المؤلم وفيه ذلة ، فمرّة يكون العذاب مُؤلماً لكـــن لا ذلةَ فيه ، ومرّة يكون العذابُ مؤلماً وفيه ذلة ، وكما أن النعمةَ فيها تعظيمٌ فالنقمة فيها ذلة .

وفى آيات أخرى يعطينا الحق سبحانه صورة حية ماثلة للأعين ،

للعذاب فى جهنم وتنوّعه بين العذاب الحسى والمعنوى ، فيقول تعالى :

﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

ويقول أيضاً : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

ويقول أيضاً : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [ص]

كلهـــا تدور حول الذَّوق والإذاقة فى العذاب ، فالإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً ، وذلك هو العذاب المهين ، والذَّوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدَّى كل مُحَسٍّ به ، ولو لم يَكُنْ مطعوماً أو مشروباً .

فقـــوله : ﴿ ذُقْ ﴾ أى : ذُق الإهانـــة والمذلـــة ، لا مما يطعم أو مما يُـــشرب ، ولكن بالإحساس ، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة فى الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب الله ، وعذاب الآخرة سيكون مَهُولاً ، والعذاب هو إيلام الحسِّ ، إذا أحببتَ أنْ تديم ألمه فأبْقِ فيه آلةَ الإحساس بالألم .

لـــذلك قـــال عباد الرحمن وجلين خائفين من عذاب الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا

سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ [الفرقان]

هـؤلاء الـذين قال الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأنبياء] ، فهم يخافون الله بالغيب ، مع أنهـم لا يرونه بأعينهم ، يخشوْنَ ربهم فى خلواتهم عن الخلق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى فى حال خلواتهم وانفرادهم .